الأزهر بين الجامع والجامعة

للأديب صبحي إبراهيم الصالح

أقبل منذ نعومة أظفاره على الدين مولعاً بدراسته شغوفاً بأسراره شديد الرغبة في بثه وإحيائه ؛ حتى إذا نال الشهادة الثانوية في موطنه لبنان قدم القاهرة فانتسب إلى إحدى كليات الأزهر وإن في صدره لآمالا كباراً ، وأحلاماً عذاباً .

لم تكن آماله لنفسه فقد وهب للدين نفسه ، ولا أحلامه في شخصه ؛ وإنما كان كل رجائه ماثلا في الأزهر الشريف يرقب وثبته الداعية إلى الإصلاح ، وتطوره الباعث على التحرر .

أسرف في حسن ظنه بالأزهر : فما ابتت الأحداث أن صدعت الباب ، لتظهره على الستور من وراء حجاب !

واقتصد في حسن ظنه وأصبح ضنيناً في مدحه حين رأى الأزهر على حقيقته ... فاحترق من الألم فؤاده ، وتقطع من الألم قلبه . وفاض من التحسر دمعه .

أخذ يستعرض في مخيلته صوراً للأزهر قد خلت فوجده — منذ بنائه إلى عهد قريب — غير مقصور على العبادة في خشية وخشوع ، ولا على الصلاة في تذلل وخضوع ، وغير مقصور على علوم الشريعة في تمحيص وتدقيق ، ولا على آداب اللغة في تبويب وتنسيق . وإنما كان نسيجاً من ذاك وهذه ، وكان النسيج من قوة الحبك ووثوق العرى بحيث استعصى على الحوادث حلة مدى عشرة قرون حل فيها الأزهر مشعل الحضارة بيده ، وبدا للعالم كله مثالا حياً للجامعة المقدسة الوقورة ، ونفر إليه الوافدون يتلقون في حلقاته علوماً يزينها الإيمان ، ومعارف يجملها الإخلاص ، وآداباً يصقلها الخلق المتين .

لقد كان الشرق عزيزاً بالإسلام ، يوم كان الغرب منزوياً في الظلام ... ثم سكر الشرق سكرة أضاعت رشاده ، فوثب الغرب وثبة بعثت جهاده !

وغلب الشرق على أمره فقلد الغرب في حضارته ، وتأثر به في مدنيته ، وانتقل بين عشية وضحاها من عهد مؤمن بالدين القويم ، مخلص لرسالته السامية ، خاضع لتشريعه الحكيم ، مذعن لأحكامه العادلة ، إلى عهد متفان في المادة الطاغية ، غارق في بحرها المتلاطم مسحور بمتاعها الكاذب ، مأخوذ بجمالها الخلاب .

* * *

ولا ريب أن مهابة رجال الدين تتفاوت قوة وضعفاً تبعاً لمكانة الدين في المجتمع ، وإن مكانة الدين في المجتمع تعلو وتهبط تبعاً لنشاط القوامين عليه ، الداعين إليه ، فلا عجب إذا أتى على علماء الأزهر حين من الدهر كانو فيه « ملوكا لا أمر فوق أمرهم ، ولا كلمة بعد كلمتهم » في عصر كان فيه صوت الدين مسموعاً ، وحكمه نافذاً ، وأنصاره كثيرين . ولا غرو إذا نزعت الحياة مهابتهم هذه في عصر خفت فيه صوت الدين . وعطلت أحكامه ، وقل دعاته . ولا بدع إذا سارع الأزهر — بدافع من حب البقاء ، وحافز من صيانة الحياة — إلى مسايرة العصر الحديث الذي يعيش فيه فانتقل من حلقات الجامع إلى فصول الجامعة ، ومن حصير الرواق إلى مقاعد الدراسة ، ومن سراج الزيت إلى نور الكهرباء ، محاولا أن يتبوأ مركزاً في الحياة ...

في مراحل هذا الانتقال أصبح عسيراً على الأزهر تعيين وجهته ، ورسم خطته : فقد تعددت أمامه السبل ، وتفرعت تحت بصره المسالك ، وتشعبت بين يديه الدروب ، ولبث في حيرة تنازعه فيها القديم والحديث ، فقيض الله رجالا أشربوا في قلوبهم الإصلاح بإيمانهم ، فخافوا على الأزهر أن يسحقه الجديد إذا بقي على القديم ، ولم يأمنوا أن يقطع صلته بماضيه إذا سارع إلى الجديد ، فتحفظوا وكانوا أمة وسطاً ، وأعلنوا للملأ شعارهم الخالد : « نحن لا نهجر القديم لأنه قديم ، ولا نعشق الجديد لأنه جديد » !

وكانوا حكماء بهذا التحفظ ، كما كانوا حكماء حين لم ينتظروا أن يتم الإصلاح في حياتهم ، فبدءوا سلسلة الجهاد ثم تركوها في أيدي أنصارهم وأعوانهم الذين حرسوا في بيئة الأزهر وفي البيئات الموالية له شريعة تهاون بها المجتمع ولم يرعها حق الرعاية .

ومع أن التحفظ خطة حكيمة فقد نجم عنه كبت للشعور ، وفي الكبت حرمان اللذائذ ، وفي الحرمان إثارة إلى مستعذب الرغائب ، وفي الإثارة تحد وإغراء ، فكان طبيعياً أن يضيق الأزهري بقيوده في عصر الحرية والانطلاق ، فينسى معاني الرضا

والقناعة المتمثلة فى حصير الرواق وسراج الزيت وصومعة النسك، ويمسى حالماً بالوظائف والعلاوات، والمناصب والدرجات.

لكن هذا كله لم يذهب بحسنات التحفظ فى نظر المنصفين الذين يعلمون أن الإصلاح التدريجى البطىء خير وأحسن من الانتقال الفجائى السريع، لأن فى البطء اتزاناً ونظاماً، وفى السرعة اضطراباً وفوضى.

والحق أن فى الأزهر اليوم نهضة إصلاحية كبرى يعترضها كثير من العقبات. والحق أن فى الأزهر ومعاهده شباباً غير قلائل يلتهبون غيرة على الدين، ولكنهم يفقدون القيادة الحكيمة والتوجيه الرشيد. ولو ذللت العقاب، ووجه الشباب، لخطا الأزهر أشواطاً إلى الكمال. ولكن ... أين الأسود لتعلم الأشبال؟

أوضح الأستاذ الطنطاوى ما كان يتلجلج فى الصدر حين وجه على صفحات الرسالة كلمة إلى الأزهريين (بمناسبة حادث الشيخ أبى العيون).

كانت الكلمة مكتوبة بشعور فياض، وعاطفة جياشة، فلم أتمالك نفسى وأنا أتلوها من التأثر والبكاء. ورحت أتلوها على إخوانى الأزهريين من المصريين وغير المصريين، فلم أجد إلا عيوناً تفيض، وقلوباً تلين. وليس بالجديد أن يكتب الأديب بمداد قلبه، فكثيراً ما يغلب على الأدباء إرهاف الحس، فيقارن أحدهم بوحى من عاطفته ما يسأم العقل من مقارنته، أو يمل من تحليله وتعليله.

هذه المقارنة الشعورية التى تجلت فى المقال لم يكن فيها مقنع للأستاذ الكبير العقاد الذى رد عليها تحت عنوان (جامع وجامعة) وإنى إذ أوافق الأستاذ على أن الشرق فى أشد الحاجة إلى تحويل أفكاره من مقارنات الشعور إلى مقارنات العقول، أرى أن موضوع الأزهر خاصة وبعض الموضوعات الأخرى ما برحت فى حاجة إلى المقارنة الشعورية بين وقت وآخر، على شرط ألا يخالف الشعور العقل فى حكمه، وإن خالفه فى أسلوبه ونظمه.

إن هذه الحياة — كما هى بحاجة إلى العقل فى حكمه الراجح الموزون — لا نستطيع أن نتجاهل أنها فى بعض الأحيان بحاجة كذلك إلى الشعور فى تصوير الحكم العقلى الجاف بصورة عاطفية مثيرة؛ وإلا فلن يكون للخطباء تأثير، ولا للشعراء تقدير، ولا للأدباء إجلال.

وإنى لأعجب الأستاذ الفاضل — وهو الأديب الذى تفخر العروبة بآثاره — كيف استنبط من مقال الطنطاوى أن علة العلل فى الأزهر مجرانه حصير الرواق وسراج الزيت وصومعة النسك، وأن البركة كل البركة مرهونة بالعودة إلى هذه الأشياء. وإنى لأكثر عجباً بموازنة الأستاذ بين صلة الترام بقلة البركة فى المبيعات والمشتريات وبين صلة سراج الزيت بما كان عليه الأزهر وما صار إليه.

ليسمح لى الأستاذ الذى كثيراً ما تعلمت من مقالاته حرية البحث أن أكون حراً فى نقدى إذا رضى أن يسميه نقداً وفى حكمى على موازنته بأنها قياس مع الفارق، ليس فى رأيى فقط، بل فى رأى إخوانى الأزهريين الذين تلوت الرد عليهم فلم يجدوا فيها مقنعاً. والأزهريون — كما جاء فى مقال الأستاذ — أفنوا حياتهم فى دراسة المنطق، والتمكن من أسسه، والتدرب على صحة أقيسته التى تعصم الأذهان من خطأ التعليل، فلهم إذاً حق المناقشة والانتقاد.

وإنى مستعد بلا ريب لتحمل مسئولية كلامى حين حكمت على تلك الموازنة بأنها قياس مع الفارق لأن الذى جعل للترام علاقة بقلة البركة رجل من عامة الناس باعتراف الأستاذ؛ أما الذى جعل لسراج الزيت علاقة بماضى الأزهر وحاضره فأديب كبير يعرف فضله الأستاذ.

ولست أزعم أن الأديب معصوم، فما أكثر ما يخطىء الأدباء! لكنى لا أرى من الإنصاف للأستاذ الطنطاوى أن نحسبه يصور ما بنفسه تصوير العوام، أو يجرى فى وصف شعوره على ما يجرى عليه الجهال، كأنه يعجز عن الموازنة بعقله، أو يرتبك فى المقارنة بمنطقه.

ليس حنين الطنطاوى إلى حصير الرواق ليعود الأزهرى إلى النوم عليه ولكن لأن فيه معنى القناعة ..

وليس تشوقه إلى سراج الزيت ليعود الأزهرى إلى القراءة عليه ولكن لأن فيه معنى السهر فى المطالعة والتحصيل ...

وليس شغفه بذكرى صومعة النسك ليعود الأزهرى إلى الانقطاع بين جدرانها ، ولكن لأن فيها معنى التعفف والتقوى والصلاح ...

وليست الأمثلة التى سردها عن العلماء الأعلام ليرغب الأزهريين فى تقليل نصيبهم من المشاركة فى الحياة العملية ، ولكن لأن فيها إشادة بالمثل العليا التى كانت أخلاق الأسلاف ...

وليست كلمته فى ختام مقاله (يا إخواننا لم نجد والله خيراً في الجامعة الأزهرية فردوا علينا الجامع الأزهر) لينتقل بالأزهريين من جديد إلى الدراسة فى حلقات الجامع ، ولكن لأن فيها مطالبة بإفاضة التقوى التى كانت روح الجامع الأزهر . فينبغي أن تكون روح الجامعة الأزهرية ! ! !

هذه الروح الطيبة هى التى فهمتها وفهمها إخوانى من غضون الكلمة ، ومن أجل ذلك بكيت وبكوا .

ولو استردت الجامعة الأزهرية هذه الروح لأدت رسالتها الأولى فى بيان حكمة التشريع الإسلامى ونشر السلام فى ربوع العالم تحت إشرافه ، ثم لأدّت رسالتها الثانية التى لا تقل عن الأولى خطراً فى استخراج حقائق « العلم الذى يعمل به المسلمون وغير المسلمين ، وفى تدارك عيب العصر الحاضر . وهو العيب الجسام الذى يتمثل فى العزل بين عالم العقل وعالم الروح . فيتعلم فيه الرجل وهو مؤمن ويؤمن فيه وهو عالم ، ويحسن قيادة المتدينين المتعلمين » .

تغمدالله الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق بسحائب رحمته ، فقد كنت مثلك كبير الرجاء — يا سيدى العقاد — فى إنجاز هذه المهمة على يديه !

قابلته رحمه الله أول ربيع الأول مع وفد من زملائى المصريين فى كلية أصول الدين ، وألقيت بين يديه كلمة جرى بها قلمى قبل لسانى ، رجوته فيها بتعديل الدراسة فى الأزهر على أحدث المناهج العصرية ، ليتمكن خريجه من أداء وظيفتيه فى ثقافة العقل وثقافة الروح . ولست أنسى مدى حياتى تلك الدمعة الطاهرة التى اغرورقت بها عيناه وهو يقول بحضور فضيلتى وكيل الأزهر ومديره : « يا أبنائى هذه هى النهضة المباركة التى طالما تمنيت أن يسعى إليها أبناء الأزهر ، وإنى لأرجو أن تهيئوا الجو الصالح لأواصل عملى فى اتزان وسكينة » .

ولقد وفى رحمه الله بوعده فبقى يواصل العمل حتى توفاه الله إليه . وعسى أن يكون خلفه محققا لرغبات الأزهر فى الاصلاح .

وبعد ، فإن الطالب الأزهرى اللبنانى لم يكتب هذا المقال إلا ليصور آلامه وآماله ، وإنه ليغتنم هذه الفرصة السانحة فيناشد الأستاذين الكبيرين العقاد والطنطاوى أن يواصلا الحديث عن الأزهر ، وأن يقوما بقسطهما فى توجيه شبابه ، حتى يعود الأزهر جامعاً لله فيه قداسة الجوامع وهيبتها ووقارها وجامعة للناس فيها علوم الجامعات وفنونها وآدابها ، وفيها — فوق ذلك — روح تخرج الناس من الظلمات إلى النور .

صبحى إبراهيم الصالح
كلية أصول الدين

وزارة المعارف العمومية
المراقبة العامة للامتحانات
قسم التعليم الثانوى الحر
إعلان

الطلبة الذين يدرسون مناهج التعليم الثانوى بمنازلهم والذين يريدون التقدم لامتحانات الانتقال فى مرحلة الثقافة العامة يمكنهم أن يطلعوا على عدد الوقائع المصرية رقم (١١) الصادر فى ١٩٤٧/٢/٦ والمدرج به أسماء المدارس الأميرية التى تقوم بامتحان طلبة المدارس الحرة وطلبة المنازل وذلك لاختيار المدرسة التى يرغب كل منهم الامتحان أمامها .

ويمكن لكل منهم كذلك الاطلاع على شروط دخول الامتحان والمواعيد المحددة لدفع رسومه وتقديم الطلبات وغير ذلك من المعلومات بالمدارس المشار إليها.

٦٨٩٩